

من أسرار خلود الثورة الحسينية

السلام عليك يا أبا عبد الله، وعلى الأرواح التي حلت بفنائك، وأناخت برحلك، عليكم مني سلام الله أبدا ما بقيت، وما بقي الليل والنهار، ولا جعله الله آخر العهد مني لزيارتكم أهل البيت، السلام على الحسين، وعلى علي بن الحسين، وعلى أولاد الحسين، وعلى أصحاب الحسين، والسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

لم تكن ثورة عاشوراء التي فجرها الإمام الحسين عليه السلام على أرض كربلاء الفداسة والجلال في وجه يزيد بن معاوية وحكومته الطائشة هي الثورة الوحيدة في التاريخ، بل كان قبلها كما حدث بعدها الكثير من الثورات.

ولكن في المقابل لم يكتب الخلود لأية ثورة كما كتب لهذه الثورة العظيمة، التي ما زالت تنبض بالحياة في وجدان الشيعة خصوصا، وفي ضمير كل حر أبيّ، ينشد العزة والكرامة في الحياة، ويأبى حياة الذل والخضوع على وجه العموم.

ولا شك أن هناك مجموعة من العوامل الكبيرة والمهمة أدت إلى هذا البقاء والخلود، ولأنه من الصعب جدا عرض جميع تلك العوامل والحديث عنها في هذه الكلمة المقتضبة، فلا بأس بالإشارة إلى عامل واحد منها، إن لم يكن هو أهم تلك العوامل على الإطلاق، فلا شك إنه من أهمها، ألا وهو عامل (القيم الإنسانية) بمعنى أن من ضمن عوامل خلود ثورة كربلاء أنها ثورة من أجل القيم الإنسانية عامة.

والذي نعنيه بهذا الكلام هو أن الإمام الحسين عليه السلام لم يفجر ثورته المظفرة طمعا في ملك، ولا منافسة في سلطان، ولا سعيًا وراء حطام، ولا بحثا عن وجاهة... وإنما فجرها دفاعا عن المثل العليا، والقيم الإنسانية الفاضلة، كالعدل، والحق، والحرية، والعزة، والكرامة، والإصلاح في الأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا ما يتجلى لنا من خلال بيانات الإمام الحسين المتعددة، التي بيّن من خلالها أهداف ثورته، وأوضح غاياتها، والتي من أشهرها وأوضحها قوله عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية قبل خروجه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة: (إني لم أخرج أشرا، ولا بطرا، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي رسول الله، وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فإن أولى بالحق، ومن ردّ علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين وهو خير الحاكمين).

وبشيء من التأمل في هذا البيان الحسيني العظيم يمكننا أن نستخلص النتائج التالية:

أولا: لقد افتتح الإمام الحسين عليه السلام بيانه هذا بتنزيه ثورته المقدسة من كل شائبة، أو غرض

دنيء، وذلك بأن أكد عليه السلام بأنه لم يكن هدفه من تفجيرها أن يستعلي ولا أن يستكبر في الأرض بغير الحق، أو أن يفسد في البلاد، أو أن يكون ظالما للعباد.

ثانيا: حصر الهدف من ثورته في أنه عليه السلام يريد الإصلاح في أمة جده، وأن يسير فيها بسيرته صلى الله عليه وآله، وسيرة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد أكد عليه السلام هذا الحصر بأداة (إنما) التي هي أقوى أدوات الحصر، وفي هذا زيادة منه عليه السلام في التأكيد على نفي أن تكون له أية غاية رخيصة من ثورته هذه، وأنه فعلا لا يهدف من ورائها إلا إلى الإصلاح.

ثالثا: بيّن عليه السلام أن ثورته الإصلاحية ليست على مستوى فرد أو أسرة أو مجتمع، بل هي ثورة كبرى، وعلى مستوى الأمة الإسلامية بكاملها.

وهذا يوضح لنا مدى حجم الفساد والانحراف، وأنه لم يكن بسيطا، ولا هو محصور في مجتمع واحد، أو بلدة واحدة، بل هو فساد عظيم، وانحراف كبير، انتشر انتشار النار في الهشيم، وتمدد وتوسع ليشمل الأمة الإسلامية بأسرها.

رابعا: كذلك يجب أن نلاحظ أن الإمام الحسين عليه السلام أطلق كلمة الإصلاح اطلاقا، مما يعني أن ذلك الفساد الذي بليت به الأمة الإسلامية لم ينحصر في أمر معين، بل هو واسع ومتشعب، ويكاد أن يكون شاملا لمختلف الحقول والميادين، فهناك انحراف ديني، وأخلاقي، واجتماعي، واقتصادي، وسياسي...

وكل هذا مما أثبتته تاريخ تلك الحقبة الزمنية بما لا مزيد عليه، وهو أيضا ما أكدّه المصلح الأكبر، الإمام أبو عبد الله الحسين في بعض بياناته المتعلقة بثورته المظفرة، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: (أيها الناس إن رسول الله قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا حرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عبادته بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله، ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر).

وهذا البيان الحسيني كما يوضح لنا مدى حجم ذلك الفساد وسعته وانتشاره، كذلك يؤكد لنا أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام ثورة إصلاحية كبرى وشاملة، هدفها القضاء على الفساد في كل أوطانه بكل أشكاله.

خامسا: لقد بيّن الإمام الحسين أن سبب قيامه بهذه الثورة الإصلاحية المباركة إنما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتكليف شرعي، وواجب اجتماعي، به يكون صلاح المجتمعات، وحفظ القيم الإنسانية، وكذا من أجل إحياء الدين، والسير في الأمة بسيرة جده خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، إذ أن ذلك الدين العظيم وتلك السيرة المطهرة هما الجامعان والحافظان لتلك القيم الفاضلة، وبهما يتحقق ذلك الإصلاح الاجتماعي العظيم.

سادسا: إنما ألحق عليه السلام سيرة أبيه المرتضى بسيرة جده المصطفى، وأوضح أنه يريد أن يسير

بها تين السيرتين الطاهرتين، ليبين أنهما -واقعا- سيرة واحدة، إذ أن الوصي هو نفس النبي بشهادة آية المباهلة، وأنه عليه السلام كان يتبع رسول الله ﷺ إتباع الفصيل أثر أمه في كل شؤون، ولم يجد له رسول الله ﷺ كذبة في قول، ولا خطلة في فعل.

سابعاً: أكد عليه السلام أنه لا يريد من أحد أن يلتحق به ويسير في ركابه لشخصه، وإنما لسمو رسالته، وقدسية ثورته، وسمو أهدافها، وشرف غاياتها، كونها ثورة محقة، لأنه عليه السلام سيفجرها نصرة للحق الذي هو من أقدس القيم الإنسانية وأعظمها.

وهذا مما يؤكد نزاهة الثورة وطهارتها، وأن مفجرها لم يفجرها إلا من أجل أن يقدم نفسه قرباناً، ويذهب شهيداً في سبيل نصرة الدين، وحفظ كرامة الإنسان، وصون شرفه وحرية.

ثامناً: أكد عليه السلام أنه في حال ردت الأمة عليه، وتخاذلت عن نصرته في ثورته التي لم يقم بها إلا من أجلها، فإنه عليه السلام سيمبر حتى يحكم الله ﷻ بينه وبين القوم وهو خير الحاكمين.

وهو تأكيد يبين مدى عزم الإمام الحسين على تفجير ثورته الإصلاحية الكبرى، وثباته على موقفه في مواجهة يزيد وحكومته الطائشة، التي هدرت كرامة الإنسان، وسلبته حريته، حتى لو أدى الأمر إلى أن يستشهد هو وأهل بيته وأصحابه في سبيل استعادة تلك الكرامة المهدورة، واسترجاع تلك العزة المنهوبة، والحرية المسلوبة، وهو ما عبّر عنه بقوله عليه السلام: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ﷻ لنا ذلك، ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام)

وكل هذا يؤكد لنا -وبما لا يدع مجالاً للشك والريب- أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي فعلاً ثورة مثل عليا، وقيم فاضلة، ومبادئ كريمة، عنوانها (الحق) وهويتها (الصدق) وغايتها (العدل) وشعارها (العزة والكرامة والفضيلة) بكل ما لهذه القيم الإنسانية الفاضلة من معنى جامع مانع.

وهذا -كما أشرنا- من أهم عوامل وأسرار خلودها منذ تاريخ تفجيرها سنة (61) للهجرة وإلى يوم الناس هذا، وستبقى حية وخالدة في الضمير الإنساني، يتغنى بها كل الأباة والأحرار في العالم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك أن مما تتصف به القيم الإنسانية العليا الخلود والبقاء، فهي لا تبلى ولا تفنى، ولا تؤثر فيها عوامل الزمان والمكان، فمهما تقدم الإنسان وتطور في حياته سيظل محتاجاً إلى تلك القيم، متيماً بحبها، لميله الفطري إليها، وجبلته الإلهية عليها، ولعلمه اليقيني بأنها زينة الحياة الدنيا، وأن الحياة من دون قيم ولا أخلاق تتحول إلى جحيم لا يطاق.

ولأن ثورة أبي عبد الله عليه السلام هي ثورة هذه المثل والقيم، خلدت بخلودها، وبقيت ببقاؤها، وجذبت الناس إليها كالمغناطيس، وحظيت بما لم تحظ به أية ثوة أخرى في التاريخ من الاحتفاء والاهتمام.

ولم يكن الاحتفاء بهذه الثورة المظفرة منحصراً في لون دون آخر، ولا في طائفة دون أخرى، ولا في أصحاب دين دون آخر، بل تمّ الاحتفاء والاهتمام بها تاريخياً وفكرياً وثقافياً وأدبياً وفنياً... من مختلف الطوائف والملل والنحل، فتم توثيقها في المؤلفات التاريخية العامة والشاملة، وفي المؤلفات

التاريخية الخاصة بها المقصورة عليها، كما كتبت حولها وفيها المقاتل والمجالس، وقدمت عنها الدراسات الثقافية والتحليلية والنقدية، وصولاً إلى الروايات والمسرحيات والرسم والشعر والأدب...سواء باللغة العربية أو غيرها، حتى استطاعت هذه الثورة العظيمة أن تغني الفكر الإنساني على مختلف الأصعدة والمستويات بما لم تغنه أية ثورة أخرى في التاريخ، كما حوّلنا تأكيد ذلك وإثباته في عدة أطروحات لنا سابقة، منها موضوعنا (الإمام الحسين: حياة دائمة ومملك عاملي) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.